﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ٢٠﴾ [الرّوم: 20]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الحُجج الظّاهرة على البَدء والإعادة

لمّا أمر اللّهُ تعالى بتسبيحه عن النّقائص والعيوب، وذَكر أنّ الحمد له على خَلْق جميع الأشياء، وبيّن قدرتَه على الإماتة والإحياء؛ ذكر ما هو حجّةٌ ظاهرةٌ وآيةٌ باهرةٌ على ذلك، ومن جُملتها خلقُ الإنسان من ترابٍ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَلَقَكُم﴾: (خلق) أصلٌ يدلّ على تَقْديرُ الشَّيءِ[2]، وهو في كلام العَرَبِ على وجهين؛ إبداعُ الشَّيء على مثالٍ لم يُسْبَق إليه[3]، تقولُ: خَلَقَ اللّهُ الشَّيءَ يَخلُقه خَلْقًا، أحدثه بَعْدَ أن لَمْ يَكُنْ، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 1] أي: أبدعهما، بدلالة قوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة: 117][الأنعام: 101]، ويُستعمل في إيجاد الشّيء منَ الشّيء نحو: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النّساء: 1]، والخَلْقُ يَكونُ المَصْدَرَ ويَكونُ المَخْلوقَ[4]، ومن صِفات اللّه: الخالِقُ والخلّاقُ، ولا تجوز هذه الصِّفة بالألف واللّام لغير اللّه ﷻ[5]، وتقولُ العَرَبُ: خَلَقْتُ الأديمَ: إذا قَدَّرتَه وقِستَه لتقطعَ منه مزادَةً، أو قُربةً، أو خُفًّا[6]، والمقصود بالخَلْقِ في الآية: التَّقدير، وفيه بيانُ خَلْقِ جوهرِ الإنسانِ وتقويم بَشَريَّته.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 89.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (خلق).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (خلق).
(5) الخليل، العين: (خلق).
(6) الأزهري، تهذيب اللّغة: (خلق).

2) ﴿تَنتَشِرُونَ﴾: (نشر) أصلُ الانتشارِ مِن النَّشرِ، وهو: فتحُ الشَّيءِ، يُقالُ: نَشَرتُ الكِتابَ أنشُرُهُ نَشرًا، أي: فتَحتُهُ، ويُطلَقُ على الشُّيوعِ والظُّهورِ، تقول: انتَشَرَ الخَبَرُ، أي: ذاعَ وظَهَرَ[1]، والانتِشارُ أيضًا: الانبِساطُ والامتِدادُ، يُقالُ: انتَشَرَ النَّهارُ يَنتَشِرُ انتِشارًا، أي: طالَ وامتَدَّ، ويأتي بِمعنى الخُروج، يُقال: انتَشَرَ الماءُ في الأرضِ، أي: خَرَجَ على سَطحِها، ومِن مَعانيه أيضًا: التَّفَرُّقُ والكَثرَةُ والتَّوَسُّعُ والاستِطالَةُ والانتِقالُ[2]، والمقصود بالانتشارِ في الآية: الظُّهورُ على الأرضِ، والتَّباعُدُ بين النّاسِ في الأعمالِ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

من آيات الله سبحانه الدّالّة على قدرته خَلْقُ الإنسان من تراب

ومِن العَلاماتِ الدّالَّةِ على صِفاتِ اللّهِ تعالى، كوحدانيَّتِه وكَمالِ قُدرتِه: أنَّه ابتدَأَ خَلْقَكم مِن تُرابٍ، فخَلَقَ أباكم آدَمَ منه، ثمَّ تَصيرونَ مِن هذا التُّرابِ الجامِدِ الذي لا حياةَ فيه ولا نموَّ ولا حركةَ بَشَرًا أحياء، تَنتَشِرونَ في الأرضِ وتَسْعَونَ فيها؛ لتحصيل معايشكم وأقواتكم[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الوصل في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾:

الاستدلال على وحدانيّة الله بخلق الإنسان

وُصِلَ قولُه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ بحرف الواو الدّالّ على العطف والاقتران، لأنّه لمّا كان الاستدلال على البعث متضمّنًا آياتٍ دالّة على تفرّده تعالى بالتّصرّف ودلالته على الوحدانية، انتقل من ذلك الاستدلال إلى آياتٍ على ذلك التصرّف العظيم غير ما فيه إثبات البعث؛ تثبيتًا للمؤمنين وإعذارًا لمن أشركوا في الإلهيَّة[5].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نشر).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (نشر).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 70.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 17، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 308.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 69.

براعة ترتيب الآية بعد سابقتها:

براعة التّخلّص

تَظهَر براعةُ ترتيب الآية: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾، بعد الآية السّابقة: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾، في التّخلّص من ذِكْرِ دلائل البعث إلى ذِكْرِ دلائل قدرته تعالى على الخَلْق، فإنّها الآية الأولى من آيات الاستدلال على وحدانيّته وقدرته، وفيها مع ذلك شَبَهٌ بالاستدلال على البعث؛ لأنّ خَلْقَ النّاس من ترابٍ، وبثَّ الحياة والانتشار فيهم، هو ضربٌ من ضروب إخراج الحيّ من الميّت المذكور في الآية السّابقة، فلذلك كانت هي الأولى في الذِّكْر لمناسبتها لِما قبلها، فجُعلت تخلُّصًا مِن دلائل البعث إلى دلائل عِظَم القدرة[1].

دلالة التّعبير بـ(مِن) في ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾:

ذِكْرُ بعض الآيات الباهرة لمنفعة الإنسان

وردَ في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ حرفُ الجَرِّ (مِن)، ومعناه التّبعيض[2]؛ وذلك لأنَّ آيات الله أكثرُ مِن أن تُحصى أو تُعَدُّ، وما ذُكِر هنا في هذه الآيات هو بعضٌ مِن كثيرٍ، يؤكِّد هذا ورودُ قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ ستَّ مرّاتٍ، تنتهي عند قوله: ﴿إِذَآ أَنتُمۡ بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ٢٥﴾ [الروم: 25]، فابتدأها بذِكْر خلق الإنسان، ثمّ بخلق العالَم عُلْويًّا وسُفْليًّا؛ إشارةً إلى أنّ الإنسان هو المنتفع بها، والحِكْمة في ذِكْرِ تلك الآيات الاهتداءُ بها[3]، والدّلالةُ على قدرته سبحانه وتعالى مِن خلال هذه الآيات النّفسيَّة والكونيَّة.

دلالةُ التّعبير بـ﴿ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ وجَمعها:

كثرةُ الأدلّة الواضحة والبراهين السّاطعة الدّالّة على الوحدانيّة

آثرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بلفظ (آيات) في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ دون غيرها كـ(دلائل)؛ وذلك لوجود فرْقٍ بينهما مِن ناحية العموم والخصوص، فالآياتُ أعَمُّ مِن الدَّلائل؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 69.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 333.
(3) الصّاوي، الحاشية على الجلالين: 3/ 203.

وذلك لأنَّها تُطلَقُ على الآية القرآنيّة، وعلى الشّيء العجيب، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: 50]، فالمراد بها هنا: الأدلّة الواضحة، والبراهين السّاطعة، الدّالّة على وحدانيّة الله تعالى وقدرته[1]، وتتميَّز (الآيات) بكونها علاماتٍ ظاهرةً تكون سببًا لإدراك أمرٍ آخَرَ، لا يتمّ إدراكُه إلّا بوجودها، في حين أنّ الدّلائل تُفيد الظّنّ، وقد تكون واضحةً وقد لا تكون[2]، والسِّرُّ في جمعها: الدّلالةُ على كثرة آيات الله سبحانه الدّالَّةِ على وحدانيّته، والمذكور في هذا السّياق بعضُها فقط.

دلالة الإضافة في ﴿ءَايَٰتِهِۦٓ﴾:

أُضيفت الآياتُ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ إلى الضَّمير العائد على الله ﷻ، باعتباره مصدرها سبحانه وتعالى، والنّكتة في هذه الإضافة تعظيمُ قَدْر هذه الآيات وتشريفُ منزلتها، فإنّ إضافة الأعيان إلى الله تشريفٌ لها، كبيت الله، وناقة الله، وغيرهما[3].

تعظيم قَدْرِ الآيات وتشريفُ منزلتِها

نُكْتَة تقديمِ شِبه الجملة ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾:

تَقَدَّم الجارُّ والمجرور ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾؛ للاهتمام بآيات الله سبحانه والتّنويه بشأنها، وذلك لأنّ السّياق القرآنيَّ هو في الاستدلال على وحدانيّة الله ﷻ وقدرته على البعث.

الاهتمام بآيات الله سبحانه، والتّنويه بشأنها

دلالة التّعبير بالمصدر المؤوَّل ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾:

آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالمصدر المؤوّل ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾، دونَ المصدر الصّريح (خَلْقُكُم)؛ للدّلالة على زمن الفعل، فإنّ المصدر قد يكون

التّذكير بأصل الخَلْق الأوّل من التّراب

(1) الطّنطاوي، التّفسير الوسيط: 11/ 75.
(2) الرّاغب، المفردات: (أي)، والعسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 97.
(3) ابن أبي العزّ، شرح الطّحاويّة، ص: 129.

فيما مضى وفيما هو آتٍ، وليس في صيغته ما يدلّ عليه، فجيء بلفظ الفعل المشتقّ منه مع ﴿أَنْ﴾ ليجتمعَ الإخبارُ عن الحَدَث، مع الدّلالة على الزّمان، مع إفادة التّذكير بأصل الخَلْق الأوّل من تراب[1].

سرُّ التّعبير بالخَلْق دونَ غيره:

اختصّ اللهُ بإيجاد الإنسان من غير مثالٍ سابقٍ

آثرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالخَلق في قوله: ﴿خَلَقَكُم﴾ دون غيره كالإنشاء والإيجاد؛ لأنَّ الخَلْقَ أعمُّ دَلالةً مِن (الإنشاء) و(الإيجاد)، وذَلِك لأنَّ الخَلْقَ يُطلقُ على معنيين؛ الإيجادُ مِنْ غَيْرِ مِثالٍ سابقٍ[2]، فالخَلْقُ بهذا المعنى مختَصٌّ باللّه وحدَهُ، قال تعالى: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ [لقمان: 11]، ومن صِفات اللّه: الخالِقُ والخلّاقُ، ولا تجوز هذه الصِّفة بالألف واللّام لغير اللّه ﷻ[3]، وقَدْ يَكونُ الخَلْقُ بمعنى التَّقْديرِ[4]، وعِنْدَئذٍ يَدخُلُ فيه تَركيبُ الشّيءِ بضَمِّ بعضِهِ إلى بعضٍ وفقَ تقديرٍ مُعَيَّنٍ، أمّا الإنشاءُ: فإيجادُ الشّيءِ وتربيتُهُ، وأكثرُ ما يقال ذلك في الحَيَوانِ[5]، فأوثرَ لفظُ الخَلْقِ في الآية لاختصاصِ الرَّبِّ سبحانه بإيجاد الإنسانِ من غير مثالٍ سابق.

دلالةُ الخطاب في قوله: ﴿خَلَقَكُم﴾:

عموم الخطاب مع تأكيده بمَن أنكر البعث

توجَّه الخطابُ في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ إلى جميع النّاس مؤمنهم وكافرهم، ويؤكِّد هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ﴾ [الحجّ: 5]، وإن كان الكفّار ألصقَ بهذا الخطاب؛ لكونهم

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/ 92.
(2) ابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (وجد).
(3) الخليل، العين: (خلق).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق).
(5) الرّاغب، المفردات: (نشأ).

منكرين للبَعث، فجاء هذا الاستدلالُ عليهم بأنفسهم؛ لأنهّم أشعرُ بها ممّا سواها[1].

دلالة التّعبير بالماضي ﴿خَلَقَكُم﴾:

خلْقُ البشرِ أمرٌ أزليٌّ قـدّره اللهُ لكلِّ المخلوقين قبلَ أن يخلقهم

دلّ التّعبيرُ بالماضي في قوله: ﴿خَلَقَكُم﴾ على أنَّه أمرٌ أزليٌّ قدَّرَه اللّه سبحانه وتعالى لِكُلِّ المخلوقين الذين أراد خَلْقَهم، يؤكِّد هذا أنّه أخَذَ العهدَ والميثاق على كلِّ المخلوقين في عالَم الأصلاب بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172].

دلالة التّعبير بـ﴿مِّن﴾ في ﴿مِّن تُرَابٍ﴾:

مبدأُ خَلْقِ كُلِّ بشرٍ من تراب

دلّ حرفُ ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ على ابتداء الغاية، فإنّ كُلَّ بَشَرٍ مبدأُ خَلْقِه من تراب، أمّا بخصوص آدمَ ﷺ فظاهرٌ، وأمّا ذرّيَّتُه فلأنّه خَلق أباهم آدمَ ﷺ من تُرابٍ، وهذا معروفٌ مِن خطاب العرب إذا خاطبتْ بما فعَلَت بِسَلَفِه تَقول: (فعلنا بكم وفعلنا...) وهم قد فُعِلوا بآبائهم[2]، أو لأنّهم خُلِقوا مِن نُطفةٍ، والنّطفة من صالح الغذاء، الّذي هو بالقوّة بعضٌ مِن الأعضاء، والغذاء يتكوّن من نبات الأرض، ونباتُ الأرض مشتمِلٌ على الأجزاء التّرابيّة التي أنبتته، فآلَ ذلك إلى أنّ البشر مخلوقين مِن تُرابٍ، فبذلك استقام جَعْلُ الخَلْقِ مِن التّراب آيةً للنّاس، أي: علامةً على عظيم القدرة مع كونه أمرًا خَفيًّا؛ على أنّه يمكن أن يكون الاستدلال مبنيًّا على ما هو شائعٌ بين البشر أنّ أصل الإنسان ترابٌ، وفيه إبطالٌ لِنظريّة النّشوء والارتقاء، التي قادها داروين، ووجهُ ذلك مخاطبةُ البشرِ باعتباره بشرًا في قوله: ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾ فهو بشرٌ خُلِق مِن تراب، وليس مِن شيءٍ آخَر، وقد يُحمل هذا التّعبيرُ على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 69.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 477.

المجاز بالحذف، بمعنى حذفِ المضاف وإقامة المضاف إليه مُقامه، والتّقدير: (خلق أصلكم - وهو آدم عليه السلام - من تراب)، وقد يكون مجازًا مُرسَلًا علاقتُه السّببيّة، فخَلَقَهم مِن تراب لأنّه تعالى خلق مادَّتهم منه[1].

دلالةُ التّعبير بـ﴿تُرَابٍ﴾ دونَ غيره:

التّراب أبعدُ الأجسام عن قبول الحياة

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالتّراب في قوله تعالى: ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ دون غيره كالطّين والصّلصال ونحوهما؛ لأنّ الترابَ الأصلُ في خلق الإنسان الأوّل، وامتدّ في بنيه مِن بعده إلى يوم القيامة، ولأنّ الطّين في أصله ترابٌ، فعُبِّر بالأصل، ولأنَّ التّعبير بالتّراب في مقام الاستدلال على القدرة الإلَهيّة أبلغُ، والنّكْتَة في ذلك: أنّ التّراب أبعدُ الأشياء عن درجة الأحياء، وذلك من حيثُ كيفيَّتُه؛ فإنّه باردٌ يابسٌ والحياة بالحرارة والرّطوبة، ومِن حيثُ لونُه؛ فإنّه كَدِرٌ والرّوح نَيِّرٌ، ومِن حيثُ فِعْلُه؛ فإنّه ثقيلٌ والأرواح الّتي بها الحياةُ خفيفةٌ، ومِن حيثُ السّكونُ؛ فإنّه بعيدٌ عن الحركة والحيوان يتحرّك يُمْنَةً ويُسْرَةً، وإلى خلفٍ وإلى قُدّام، وإلى فوق وإلى أسفل، وفي الجملة: فالتّرابُ أبعدُ من قبول الحياةِ عن سائر الأجسام، فكان إنشاءُ المخلوق الحيّ المُدرِك منه دالًّا على العظَمة، وتمامِ القُدْرة للخالق سبحانه[2].

نُكْتَةُ التّنكيرِ في ﴿تُرَابٍ﴾:

خلقُ البَشر مِن مُطلَق التّراب

جاء في قوله تعالى: ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ لفظُ ﴿تُرَابٍ﴾ نكرةً، ويحتمل التّنكيرُ فيه الدّلالةَ على الإبهام وعدم التّعيين، فالبشرُ مخلوقون من مُطلَق التّراب، كما يحتمل التّنكيرُ الدّلالةَ على التّحقير، فذُكِّرَ البشرُ بنسبتهم إلى التّراب؛ لئَلّا يُعجبوا بأحوالهم، وليُدرِكوا أنّ الأصل تُربةٌ، ولكنّ العِبرة بالتّربيّة لا بالتُّربة[3].

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 15/ 118، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 31.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 89.
(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 112.

دلالةُ التّعبير بـ﴿ثُمَّ﴾ في جملة: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ﴾:

خَلْقُ الإنسانِ في أطوارٍ عديدةٍ

آثرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بحرف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ دون غيره؛ لقصد إفادة التّراخي في المُدّة، فانتشارُ البشر في الأرض لا يتأتّى إلّا بعدَ مرورِهم بأطوارٍ متعدّدة، منها: أطوارُ خَلْقِهم في بطون أُمَّهاتِهم، وأطوارُ طفولتهم وصباهم، إلى أن يبلغوا سنّ الرّشد، ودليله قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ [غافر: 67][1].

دلالةُ التّعبير بـ﴿إِذَآ﴾ في ﴿إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ﴾:

خُلِقَ الإنسانُ مِن تُرابٍ بأمر التّكوين

عُبّر بحرف ﴿إِذَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ لأنَّها لِلمفاجأة، يقال: خرجت فإذا أسدٌ بالباب، والمعنى: فاجَأْتُم كَونَكم لكم بَشَرةٌ هي في غاية التّماسك والاتّصال معَ اللّين، عكسَ ما كان لكم منَ الوصف إذْ كنتم ترابًا، وفي ذلك أيضًا إشارةٌ إلى أنّ اللّه تعالى خَلَق الإنسان مِن تُرابٍ بـ(كن) فكان، لا أنّه صار معدنًا ثمّ نباتًا ثمّ حيوانًا ثُمّ إنسانًا[2].

نُكْتَةُ الجمعِ بين التّراخي والمفاجأة:

تراخي الزّمان في الخَلْق العجيب للإنسان

جُمع في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ بينَ التّراخي المدلول عليه بحرف ﴿ثُمَّ﴾، والمفاجأة المدلول عليها بحرف ﴿إِذَآ﴾، مع أنّ ﴿إِذَآ﴾ الفجائيّة أكثرُ ما تقع بعد الفاء، لكنَّها وقعت هنا بعد ﴿ثُمَّ﴾، لما يليق بهذه الحالة الخاصّة، وهي أطوار الإنسان، كما حكاها اللّهُ تعالى في مواضع، من كونه نطفةً، ثمّ علقةً، ثمّ مضغةً، ثمّ عظمًا مكسوًّا لحمًا[3]، ونُكتةٌ بلاغيّةٌ أخرى في تصدير الجملة

(1) الطّنطاوي، التّفسير الوسيط: 11/ 75.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 90، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 65.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 37.

بحرف المفاجأة، وهي: أنّ كونَ الخلق بَشرًا يَظهَر للنّاس فجأةً بوضع الأجنّة، وما بين ذلك من الأطوار التي اقتضاها حرفُ المُهلة هي أطوارٌ خفيّةٌ غيرُ مشاهدةٍ، فكان الجمعُ بين حرف المُهلة وحرف المفاجأة تنبيهًا على ذلك التّطوّر العجيب، وحصل من المقارنة بين حرف المهلة وحرفِ المفاجأة شِبهُ الطِّباق، وإن كان مرجِعُ كلٍّ مِن الحرفين غيرَ مرجع الآخَر[1].

دلالة التّعبير بلفظ ﴿بَشَرٌ﴾:

تسمية الإنسان بالبَشَر اعتبارًا بظهور جِلْدِه من الشَّعَر

أوثِر التّعبيرُ بلفظ ﴿بَشَرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ دون (خَلْق)؛ لأنّه اسمُ جمعٍ للنّاس، يُعبَّر به عن الإنسان اعتبارًا بظهور جِلْدِه من الشَّعر، بخلاف (خَلْق) فهو مصدرٌ سُمّي به جميعُ المخلوقات من إنسانٍ وحيوانٍ وجمادٍ وطَيرٍ ونحوِ ذلك، وبما أنّ الخطاب موجّهٌ للمُكَلَّفين المخلوقين مِن ترابٍ ناسبَ ذِكْرُ (البشر) دونَ غيره.

نُكْتَةُ تنكير لفظ ﴿بَشَرٌ﴾:

الدّلالة على كثرة الخَلْق

جاء في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ لفظُ ﴿بَشَرٌ﴾ نكرةً، والنّكْتَةُ في تنكيره التّكثيرُ، كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النّساء: 1]، فبثّ الله من آدم ﷺ بشرًا كثيرين.

دلالة تقييد ﴿بَشَرٌ﴾ بجملة ﴿تَنتَشِرُونَ﴾:

قدرةُ الخالق سبحانه في خلق بَشَرٍ يجمعون بين الإدراك والحركة

قُيّد الخبر ﴿بَشَرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ بجملة ﴿تَنتَشِرُونَ﴾، وهي في محلّ الحال، والنّكْتَةُ في ذلك التّعجيبُ من قدرة الخالق سبحانه في خَلْق بشرٍ منتشرٍ بقوّةٍ مُدرِكَةٍ وقوّةٍ مُحرِّكَةٍ مِن ترابٍ ساكنٍ خامدٍ، فالخَلْق وحدَه عجيب، وجَعلُه منتشرًا من جمادٍ عجيبٌ أيضًا، ودالٌّ على عظيم القدرة في الإحياء والإماتة[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 70.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 90.

دلالةُ التّعبير بالانتشار في الآية:

عظَمةُ الخالقِ في تصريف المخلوقات في أمور معايشهم

عُبّر بلفظ الانتشار في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾؛ للدّلالة على عظَمة الخالق سبحانه في تصريف المخلوقات في أمور العيش، وأصلُ مادَّةِ الانتشار يدلّ على التّشعّب[1]، فقد خلق اللّهُ سبحانَه من التّراب الذي لا تُرى فيه رائحةُ حياةٍ بشرًا يتشعّبون في الأرض، ويمشون في مناكبها، ويتقلّبون فيها تارةً عن طريق الزّراعة، وتارةً عن طريق التّجارة، وتارةً عن طريق الأسفار طَلَبًا للرّزق، وفي هذا أيضًا امتنانٌ على الإنسان بِنِعَمٍ تستوجب التّسبيح والشُّكران[2].

بلاغةُ المضارِع في ﴿تَنتَشِرُونَ﴾:

تجـدُّدُ انتشارِ النّاس لعمارة الكون

جاء الفعل ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ بصيغة المضارع للدّلالة على التجدّد والاستمرار، فالبشر لا يفتُرون مِن التّحرّك في مصالحهم، والتّصرّف في قِوام معيشتهم، ويتجدَّدُ منهم كلَّ يومٍ سَعيٌ في تحصيل أرزاقهم وإصلاح شؤونهم.

نُكْتَةُ حذفِ متعلّق الفعل ﴿تَنتَشِرُونَ﴾:

إرادةُ فِعلِ الانتشار بذاته

حُذف مُتَعَلَّق الفعل ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾؛ لكون فعل الانتشار في حدّ ذاته هو المقصودُ مِن الكلام، دونَ التّعرّض لمكان الانتشار أو زمانه، فالغَرضُ العامّ مِن ذِكْرِ الفِعْلِ مجرّدًا الاقتصارُ على إثبات معنى الفعل؛ لإفادة الوجود المُجرَّد في الشّيء دونَ التّعرّض للمعمول[3]، ومعلومٌ أنّه إذا كان الكلامُ مُنصَبًّا على غرضٍ مِن الأغراض جُعل سياقُه له وتوجُّهُه إليه، كأنّ ما سواه مرفوض مُطَّرحٌ[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نشر).
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 75.
(3) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 153.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التّراب والغُبار:

التّراب مادّةُ خَلْقِ الإنسان دونَ الغُبار

يظهر الفرْقُ بَين اللّفظين في كون الغُبار هو ما دقّ من أجزاء التّراب، ولهذا نَصَّ بعضُ الفقهاء على عدم جواز التَّيَمُّم إلّا بتراب طاهرٍ له غُبارٌ يَعلَقُ باليد، وقد ورَدَ في كثيرٍ مِن آيات القرآن لفظُ (التراب) في ذكر مادَّة خلق الإنسان كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [فاطر: 11]، ولم يرد لفظ الغُبار في القرآن، وإن كان ورد بمعناه (النّقع) في قوله تعالى: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤﴾ [العاديات: 4]، والنّقع: الغبار[1]، فأوثِرَ لفظُ التّراب في الآية لكونه مادَّةَ خَلْقِ الإنسان دون الغبار.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 501.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والأربعون،
سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 43 ، 816 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-94-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 43 : المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-94-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9381682 بتاريخ 2024/12/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»